اجتهادات العلماء في محاولة التوفيق بين القواعد وبعض النصوص

د. هويدا المختار عبدالله
كلية التربية بأبي عيسى
جامعة الزاوية

ملخص الدراسة:

حاول علماء اللغة مجدين في أن يضعوا قواعد بديلة، أو يصح أن نقول: اجتهادات فرعية للتوفيق بين القواعد وبعض النصوص، وخاصة عندما وقفوا أمام الكثير من النصوص المسموعة الفصيحة التي تشذّ عن قواعدهم التي وضعوها للغة، أي: أنّ هذه النصوص لا يمكن ردّها أو إنكارها، وفي الوقت نفسه لم تحملها قواعدهم المطّردة، فلجأوا إلى وضع بعض الحلول المعتمدة عن المعنى لحل هذا الأمر، إذ الهدف من هذه الدراسة هو محاولة الكشف على هذه الحلول، وبيان دور اللغة في محاولتهم للتوفيق بين قواعدها المشهورة وتلك النصوص، متبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، وتتكون هذه الورقة من أربعة مباحث، الأول: الحمل على المعنى، والثاني: التضمين، والثالث: التوهم، أما الرابع: فيتناول ظاهرة التقارض .

وتسعى الباحثة للوصول إلى النتائج الآتية: إن هذه الظواهر ماهي إلا وسيلة للكشف عن دور المعنى في التقعيد النحوي، وأن تلك الظواهر اللغوية ما وضعت اعتباطا، وإنما لكل منها فائدة وميزة تمتاز بها عن غيرها، فجلّها وضعت لسلامة التراكيب اللغوية.

The jurisprudence of scholars trying to reconcile the rules and some texts

Summary:

Linguists have tried hard to put alternative rules, or it is correct to say: sub-judgments to reconcile the rules and some texts, especially when they stood in front of many eloquent audio texts that deviate from their rules that they set for the language, that is: these texts cannot be rejected or denied. At the same time, their constant rules did not carry them, so they resorted to putting some solutions based on the meaning to solve this matter, as the aim of this study is to try to discover these solutions, and to clarify the role of language in their attempt to reconcile between its famous rules and those texts, following the descriptive approach in that Analytical, and this paper consists of four sections, the first: pregnancy on the meaning, the second: implication, the third: illusion, and the fourth: deals with the phenomenon of borrowing.

The researcher seeks to reach the following results: that these phenomena are only a means of revealing the role of meaning in the grammatical complexity, and that these linguistic phenomena were not placed arbitrarily, but each of them has a benefit and an advantage that distinguishes it from others, most of which were developed for the safety of linguistic structures.

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير البرية الصادق الأمين، وبعد:

تمتاز اللغة العربية بكثرة الظواهر اللغوية فيها، ولم توضع هذه الظواهر اعتباطا، وإنّما لكل منها فائدة وميزة تمتاز بها عن غيرها، وجلّها وضعت لسلامة التراكيب اللغوية، فاللغة العربية تميزت بسعتها ومرونة ألفاظها، وقدرة النحاة في الاتساع وتخير الألفاظ؛ للدلالة على المعنى والغرض الواحد بألفاظ مختلفة.

ويتناول هذا البحث قضية مهمة في اللغة هي: اجتهادات العلماء في محاولة التوفيق بين القواعد وبعض النصوص، وقد قُسّم البحث على أربعة مباحث وخاتمة، تناول المبحث الأول ظاهرة الحمل على المعنى، تعرفنا على المقصود بالحمل على المعنى لغة واصطلاحا، وبيّنا بعض المصطلحات التي تحمل المعنى نفسه، كما تعرفنا على أهمية

الحمل على المعنى، أمّا المبحث الثاني فتناولت فيه قضية التضمين وفائدته في العربية، ومواضع التضمين في اللغة، ثم تناولت في المبحث الثالث قضية التوهم ومواضعه في المجرور، والمجزوم، والمرفوع اسما، وفي المنصوب اسما وفعلا، وفي المركبات، وتناول المبحث الرابع ظاهرة التقارض وبينت فيه أهم مواضع التقارض في العربية، وأخيرا خُتم البحث بالنتائج التي تم التوصّل إليها من خلال تتبع جهود العلماء حول هذه القضية.

المبحث الأول: الحمل على المعنى

الحمل على المعنى من الظواهر التي اشتهرت بها اللغة والدرس اللغوي، وتعدّ ظاهرة العدول عن المعايير والقواعد النحوية من أوسع الظواهر في اللغة، فاللغة العربية تشتهر بحمل بعضها على بعض بنية وتركيبا وإعرابا ووظيفة نحوية، وإلحاق بعضها ببعض، وإعطاء حكم بعضها لبعض، يقول ابن جني : "وقد شاع واتسع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معقود المعنى، وترك الظاهر إليه، وذلك كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر، وإفراد الجماعة، وجمع المفرد، وهذا فاش عنهم"(1).

وقبل أن نخوض الحديث عن هذه الظاهرة، ونسوق الشواهد اللغوية علينا أن نتعرف على معنى الحمل لغة، واصطلاحا.

الحمل لغة

وردت لفظة الحمل في المعاجم العربية بمعان متقاربة، تدور حول معنى الرفع والحمل، يقول ابن منظور: "حمل الشيء يحْمِله حَملا وحُمْلاناً وهو محمول ...، والحِمْل ماحُمِل، والجمع أحمال، وحمله على الدابة تَحْمِله حَمْلا ...، وحَمِلت الشيء على ظهري أحْمِله حَمْلاً"(2).

وجاء في المعجم الوسيط: "الحِمْل على ظهر الدابّة حَمْلاً وحُمْلاناً، رفعه ووضعه عليه، فهو محمول حميل، وحمل الشيء على الشيء: ألحقه به في حكمه"(3).

ومن التعريفين السابقين يتضح أن الحمل في اللغة يقصد به رفع الشيء على الشيء، أو حمله عليه، كحمل البضاعة على ظهر الدابة، بينما الحمل في الكلام كما جاء في المعجم الوسيط فهو أن تلحق كلاما بغيره فيأخذ حكمه في المعنى، ولعل هذا يوافق ما وجدناه عند النحاة من تعريفات حول هذا المصطلح.

الحمل في الاصطلاح.

أما مفهوم الحمل في عرف النحاة فهو أن :"يترك حكم ظاهر لفظه؛ لأنّه محمول على معناه، يقولون: (ثلاثة أنفس)، والنفس مؤنثة؛ لأنّهم حملوها على الإنسان، ويقول: (ثلاث شخوص)؛ لأنّهم يحملون ذلك على أنهنّ نساء"[4].

أو هو أن "يعطى الشيء حكم ما أشبهه في معناه، أو في لفظه، أو فيهما"[5].

ويقول العنبكي: "الحمل على المعنى هو أن يكون الكلام في معنى كلام آخر، فيحمل على ذلك، أو يكون للكلمة معنى يخالف لفظها، فيحمل الكلام على المعنى دون اللفظ"[6].

وهو أيضا "حمل لفظ على معنى آخر، أو تركيب على تركيب آخر؛ لشبه بين اللفظين أو التركيبين في المعنى المجازي، فيأخذ حكمهما النحوي مع ضرورة وجود قرينة لفظية أو معنوية تدل على ملاحظة اللفظ أو التركيب الآخرين، ويؤمن اللبس بينهما"[7].

وخلاصة ذلك نفهم أن الحمل على المعنى يتم بين لفظين متشابهين، فيُحمل معنى الثاني على الأول، لوجود قرينة بينهما، والحمل على المعني يعني أن نعول على المعنى دون اللفظ، أي: أنّ الغاية من الكلام معناه بالدرجة الأولى، بمعنى أننا لا نلتفت للفظ، ولا للموضع، وإنّما نترك ظاهره ونحمله على معناه، ولهذا سميت هذه الظاهرة بهذا الاسم.

ولكن يجب أن ننوّه في هذا الموضع إلى أن النحويين كانوا لا يلجأون إلى هذه الظاهرة إلا إذا لم يتمكنوا من حمل الكلام على اللفظ والمعنى معا؛ لاعتقادهم أن الحمل على اللفظ والمعنى أولى من الحمل على المعنى فقط[8].

تعبيرات أخرى تؤدي معنى الحمل على المعنى.

هناك ألفاظ أخرى عبّر بها بعض النحاة في التعبير عن هذه الظاهرة، إلاّ أنّ تعبير أو مصطلح (الحمل على المعنى) من المصطلحات الشائعة والمعروفة بين النحاة، وهو الأعم من الألفاظ والتعبيرات الاخرى، يقول العنبكي: "والحمل على المعنى من المصطلح المعروف الشائع، وهو أعم من غيره من المصطلحات الأخرى، أو الألفاظ والتعبيرات، وأكثرها شيوعا، وأدقها تعبيرا، وأكثرها أداء للمعنى المطلوب"[9].

ونذكر من هذه التعبيرات نقلا عن العنبكي كما يلي:[10]

حمله على كذا.

التأويل.
ذهب به إلى كذا.
مراعاة المعنى.
اعتبار المعنى.
الرد على المعنى.
الإجراء على المعنى.
الإعادة على المعنى.
جاء على المعنى.
أخرجه على المعنى.
أراد كذا.
جعله على كذا.
عنى به كذا.
وضعه على كذا.
قصد به كذا.

ولعل هذه التعبيرات تشير إلى مرونة اللغة، وقدرة النحاة في الاتساع وتخير الألفاظ؛ للدلالة على المعنى والغرض الواحد بألفاظ مختلفة.

أهمية الحمل على المعنى

لهذه الظاهرة مهمة أساسية ألا وهي حمل النصوص التي تبدو مخالفة للقواعد على نصوص أخرى توافق القاعدة اللغوية وفقا للمعنى، وذلك تحقيقا لسلامة التركيب اللغوي.

ونظرا لأهمية هذه الظاهرة في اللغة فقد أصبحت من أكثر الظواهر اتساعا وشهرة، فهذا ابن جني يصفها بذلك، ويشبهها بالبحر الذي لاينضب ماؤه، فيقول: "وباب الحمل على المعنى بحر لا يُنكس، ولايُفْنَج، ولا يؤبى، ولا يُغرّض، ولا يُغضغض، وأرينا وجهه، ووكلنا الحال إلى قوة النظر وملاطفة التأويل"[(11)].

فهي بذلك تعد نوع من التأويل أو التحويل المرتكز على المعنى، يقول محمد حماسة: "فالحمل على المعنى وسيلة تأويلية، أو إن شئت تحويلية، ولكنّها تعتمد على المعنى"[(12)].

وتبرز أهمية الحمل على المعنى فيما حملته كتب القدامى ومؤلفاتهم من أمثلة ونماذج ونصوص لغوية حول هذه الظاهرة، ومن هذه الأمثلة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مايلي:

ـ حمل المؤنث على المذكر، ومن ذلك قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي) [13]، فأشار الله عز وجل إلى الشمس باستخدام اسم الإشارة (هذا)، وبذ=لك فهي محمولة على معنى: هذا الشخص، أو هذا المرئي[14].

حمل المذكر على المؤنث، وذلك بأن نؤنث المذكر حملا على معنى لفظة أخرى تشاركها في الدلالة أو المعنى، ومثال ذلك رواية الأصمعي عن أبي عمر عندما سمع رجلا يقول: فلان لغوب جاءته كتابي، فاحتقرها، واستنكر أبوعمر ذلك، وقال له: أتقول: جاءته كتابي؟، فقال الرجل: نعم، أليس بصحيفة؟، أي: أنّه حمل الكتاب على معنى الصحيفة"[15] ، فأنّث بذلك الكتاب؛ لتساوي الدلالة بينهما.

ـ النصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره حملا على المعنى، ومن ذلك ماذكره سيبويه في تفسير قوله تعالى: (انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ) [16]، فقال نقلا عن شيخه الخليل "وقال الخليل: كأنّك تحمله على ذلك المعنى، كأنّك قلت: ائْتَهِ وادْخُل فيما هو خيرٌ لك، فنصبته؛ لأنّك قد عرفت أنك إذا قلت له: ائْتَهِ، أنّك تحمله على أمرٍ آخرَ، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام، ولعلم المخاطب أنّه محمول على أمرٍ حين قال له: ائْتَهِ، فصار بدلا من قوله: ائت خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك"[17].

ويُلاحظ من ذلك مدى العلاقة الوثيقة والترابط بين الحمل على المعنى والحذف أو الإضمار، فما دفع النحاة إلى الحمل على المعنى هو محاولتهم للتوفيق بين الحذف والقاعدة النحوية والله أعلم.

ـ حمل الفاعل على المعنى، وذلك حينما وردت شواهد لغوية فصيحة لا فاعل فيها، فحملوها النحاة على المعنى ولم يردوها، ومنه قول الشاعر[18]:

فإن كان لايرضيك حتى تردني *** إلى قطرى لا إخالك راضيا.

يقول ابن جني نقلا عن الفرّاء: "حمله الفراء على المعنى، قال: لأنّ معناه: لا يرضيك إلاّ أن تردّني، فجعل الفاعل متعلقا على المعنى، وكان أبو عليّ يُغلط في هذا ويكبره ويتناكره، ويقول: الفاعل لا يحذف، ثمّ إنّه فيما بعد لآن له وخفض جناح تناكره،

وعلى كل حال، فإذا كان الكلام إنّما يصلحه أو يفسده معناه، وكان هذا معنى صحيحا مستقيما لم أرَ بأساً"[19].

ولعل الشواهد في ذلك كثيرة جدا، فهو أكثر في كلامهم من أن يحصى، ومبدأ ظاهرة الحمل عن المعنى واضح، إذ المعنى هو الأساس في إقامة الكلام، فالغاية من الكلام معناه، ولابد أن يستقيم مع غايته في اللفظ أو في التقدير.

والخلاصة من ذلك تبدو أن هذه الظاهر وسيلة بارعة في ربط الجمل من حيث بناء بنيتها، وسلامة تركيبها، كما وأنها وسيلة للكشف عن دور المعنى في التقعيد النحوي، فهي الظاهرة الأكثر شمولا واتساعا عن غيرها من الظواهر التي لجأ إليها النحاة في منهجهم كالتقدير، والحذف والإضمار، وغير ذلك.

المبحث الثاني: التضمين

التضمين من الظواهر اللغوية التي اشتهرت بها اللغة العربية، يؤدي المعنى دورا بارزا في هذه القضية، وظاهرة التضمين لا تبتعد عن ظاهرة الحمل على المعنى، فكلتاهما وضعتا للعناية بالمعنى، وتحقيق السلامة للتركيب اللغوي، ولإيضاح ذلك علينا أن نتعرف على معنى التضمين لغة واصطلاحا.

التضمين لغة.

التضمين في اللغة من الفعل الثلاثي (ضمن)، وهو "جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملا عليه"[20].

ويقول ابن منظور:"ضمّن الشيء أودعه إيّاه، كما تُودع الوعاء المتاع...،ويقال ضَمِنَ الشيء بمعنى يضمّنه، ومنه قولهم مضمون الكتاب كذا وكذا...، ضَمِنتُ الشيء أضمنه ضمانا، فأنا ضامن وهو مضمون"[21].

والضمن: "باطن الشيء وداخله، يقال: يفهم من ضمن كلامه كذا، أي: دلالته ومراميه"[22].

ونقول أيضا: "فهمت ما تضمّنه كتابك، أي: ما اشتمل عليه وكان في ضمنه"[23].

ولو تمعنّا في المعاني اللغوية السابقة، لوجدنا في كل منها ما يدل على التخفي والاستتار، واشتمال ظاهر اللفظ على ذلك المخفي ودلالته عليه.

فالتضمين إذا هو أن نجعل شيء في باطن شيء آخر، ونودعه فيه، ويتكون من عنصرين أساسيين هما: الضامن والمضمون.

التضمين اصطلاحا.

أمّا التضمين اصطلاحا فهو: إشراب لفظ معنى لفظ آخر، فيأخذ حكمه[24].

أو "هو أن تضمن اسما معنى اسم؛ لإفادة معنى الاسمين، فيعديه تعديته في بعض المواطن، كقوله تعالى: (حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ) [25]، ضمّن معنى حريص؛ ليفيد أنّه محقوق، يقول الحق وحريص عليه"[26].

وعرّفه ابن عاشور بشرح وافٍ في تفسيره، فقال: "والتضمين أن تضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ماهو من متعلقاته من حرف أو معمول، فيحصل في الجملة معنيان"[27].

وقيل: "التضمين إيقاع لفظ موقع غيره؛ لتضمنه لمعناه، وهو نوع من المجاز"[28].

ويتبين مما سبق أن مفهوم التضمين يدور حول معنى متقارب لمفهوم الحمل على المعنى، فكلاهما يعولان عن المعنى دون أن يكون للفظ في ظاهره دور أساسي سوى أنه شابهه في معناه فحمل عليه، أو تضمّنه فأُشرِبَ معناه.

فائدة التضمين

تمتاز اللغة العربية بكثرة الظواهر اللغوية فيها، ولم توضع هذه الظواهر اعتباطا، وإنّما لكل منها فائدة وميزة تمتاز بها عن غيرها، وجلّها وضعت لسلامة التراكيب اللغوية وخدمة المعنى، فالتضمين أحد الظواهر التي وضعت لخدمة اللغة، وتتمثل فائدته في أن تؤدي كلمة معنى كلمتين[29].

وذكر السيوطي أنّ فائدة التضمين والغرض منه هو إعطاء مجموع معنيين، وهذا أقوى من إعطاء معنى، ورجّع قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[30] إلى قولك: لا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم، وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾[31] إلى معنى: لا تضمّوها إليها آكلين[32].

وخلاصة ذلك تتمثل في أن الغرض من التضمين والفائدة هو أن يُعطى للفظ الواحد مجموع معنيين لا معنى، وذلك هو الأقوى في اللغة.

مواضع التضمين في اللغة

لم يكن التضمين منحصرا بقسم معين من أقسام الكلم، كما زعم الباحث أكرم الحميداوي، إذ حصره في الأفعال والحروف، واستثنى الاسم من هذه الظاهرة[33].

بينما نجده يشيع في أقسامه الثلاثة (الاسم والفعل والحرف)، ولنا في ذلك أمثلة وشواهد كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لاالحصر مايلي:

التضمين في الأسماء

تظهر آثار هذه الظاهرة منذ القدم وبوضوح من خلال تعريف الشافعي للتضمين، عندما قال: "هو أن تضمّن اسما معنى اسم؛ لإفادة معنى الإسمين"[34]. وهذا دليل صريح لوقوع التضمين في الأسماء، ومنه قوله تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ)[35]، فيقول عباس حسن نقلا عن التفتازاني: "لا يجوز تعلقه بلفظة الله؛ لكونه اسما لاصفة، بل هو متعلق بالمعنى الوصفي الذي ضمنه اسم الله، كما في قولك: هو حاتم من طيء، على تضمين معنى الجواد"[36].

ومنه أيضا قوله تعالى: "حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق"[37]، حيث ضمّن "حقيق" معنى حريص، لكي يفيد بأنه محقوق لا يقول إلا الحق وحريص علي ذلك[38].

التضمين في الأفعال

قد يتضمن الفعل معنى فعل آخر فيأخذ حكمه، كما في باب (تعدّي الفعل بحرف جر لايتعدّى به)، إذ قد يتعدّى الفعل بحرف جر يتعدى به فعل في معناه، فيحمل عليه تضمنا لمعناه، قال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) [39]، فضمن معنى الرفث على معنى الإفضاء، إذ الرفث لا يتعدّى بحرف الجر (إلى)، فإنّك لا تقول: (رفث إلى المرأة)، ولكنك تقول: (رفثت بها، أو معها)، ولما كان في معنى الإفضاء تضمّنه، فتعدّى بـ (إلى)[40].

التضمين في الحروف:

التضمين في الحروف أكثر اتساعا منه في أقسام الكلم الأخرى، فكثير ما تناوله الباحثون، وسيق فيه العديد من الأمثلة القرآنية، وكلام العرب شعره ونثره، ولكن لضيق

المجال فإننا سنكتفي بعرض مثال واحد كبيان لصورته في اللغة، ومن ذلك تضمين الباء بمعنى (عن)، قال الله تعالى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (166)) [41]، فالباء في قوله"بهم الأسباب" تضمنت معنى (عن)، أي: عنهم الأسباب، وقوله تعالى: "فاسأل به خبيرا"[42]، أي عنه خبيرا[43].

ويجب أن نشير إلى قضية مهمة تتفق مع هذه الظاهرة ألا وهي (قضية التناوب)، فكلاهما يفيدان وضع حرف محل حرف آخر؛ لأنّه في معناه، وبالتالي فالمصطلحان يتفقان ولا يمكن التفريق بينهما[44].

وخلاصة ما سبق أن التضمين موجود ومنذ القدم، وهناك الكثير من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية، وكلام العرب قد اشتملت على التضمين، وهذا يكشف عن أهمية المعنى في اللغة منذ القدم، ومدى اهتمام النحاة به في كلامهم ومؤلفاتهم.

المبحث الثالث: التوهم

الحمل على التوهم من الظواهر اللغوية التي لا تقل أهمية عن غيرها، وقد عرف النحاة هذه الظاهرة منذ القدم، واختلفوا بشأنها، واضطربيت أقوالهم في تسميتها، فمنهم من حملها على الغلط، كسيبويه عندما قال: "واعلم أنّ أناسا من العرب يغلطون فيقولون: إنّهم ذاهبون، وإنّك وزيد ذاهبان، وذاك أن معناه معنى الإبتداء"[45].

كما أُطلِق عليه مصطلح التوهم، وحملوه أيضا على المعنى، ذلك لأنّ مصطلح التوهم لايتناسب مع الآيات القرآنية[46].

لهذه الظاهرة دور كبير في معالجةالنصوص التي خالفت القواعد النحوية، ولكي يتضح لنا ذلك يجب علينا أن نأخذ فكرة ولو يسيرة عنها.

التوهم لغة

ورد مصطلح التوهم في لسان العرب بمعان كثيره أهمها قوله: "وهم ... والجمع أوهام ...، وتوهم الشيء تخيله وتمثله، كان في الوجود أو لم يكن، وقال توهمت الشيء وتفرسته، وتوسمته وتبينته بمعنى واحد ...،وتوهمت أي:ظننت واوهمت غيري إيهاما، والتوهم مثله ، ويقال: وهمت في كذا وكذا أي: غلِطتُ"[47].

وعليه فالمعنى اللغوي لهذا المصطلح هو تصور الأمور وتخيلها في العقل دون أن يكون لها وجود في الواقع الملموس، فهو متصل بالعقل والفكر.

التوهم اصطلاحا

أما التوهم في اصطلاح النحاة فهو: "تفسير تخيّلي يضطر إليه النحاة وذلك عن طريق الاستعانة بالمعنى في محاولة التوفيق وتحقيق الانسجام بين ما قد يظن من خطإ في إعراب بعض التراكيب العربية الفصيحة التي لاريب في صحتها، وبين القواعد النحوية، ومحاولة تفسير مجيئها على هذا النظام"(48).

وعرّفه أبو البقاء الكوفي بقوله: "ليس المراد بالتوهم (الغلط)، بل المراد به العطف على المعنى، أي: جوّز العربي في ذهنه ملاحظة ذلك المعنى في المعطوف عليه ملاحظا له، وهو مقصد صواب"(49).

ويقول محمد اللبدي: "التوهم نوع من أنواع العطف، يبيح للمتكلم الخروج بالكلام في إعراب، وذلك على غير وجهه الذي يقتديه الكلام توهما لوجود عامل متوهم"(50).

مما سبق نستخلص أنّ التوهم شيء تخيلي لاوجود له في الظاهر، سابق في الذهن، كثيرا ما نجده في العطف، عامله مفقود وآثاره باقية، والمعنى هو الذي يساعد في الوصول إلى العامل المحذوف، ويكشف عن عوار بعض التراكيب.

فالمعنى هو الذي يحقق التوفيق بين الإعراب وصحة التركيب، وبالتالي يمثل المعنى نقطة البدء للنحاة في عملهم، ونقطة الانتهاء، فهو الركيزة الأولى والأخيرة لتحقيق التوافق اللغوي، وسلامة التراكيب النحوية.

مواضع التوهم

يقع التوهم أو العطف على التوهم في عدة مواضع منها ما يلي:

المجرور، والمجزوم، والمرفوع اسما، وفي المنصوب اسما وفعلا، ويقع في المركبات أيضا(51).

وقدحملت ثنايا كتب القدامى والمحدثين العديد من الشواهد على التوهم، نذكر بعض النماذج من أجل الوقوف على حقيقتها اللغوية، وبيان دور المعنى فيها مايلي:

أولا: مايقع في المجرور، ومن ذلك كلمة (قاعد) من قولك: لست قائما ولاقاعدٍ، بجرّها توهما لدخول العامل المتوهم، فدخل على خبر ليس لكثرة دخول الباء في خبرها، ولم يحسن أن تقول: ما كنت قائما ولاقاعد بالجر؛ لقلة دخول الباء في خبر كان، وقد سمّي هذا النوع بالعطف على المعنى(52).

ثانيا: ماوقع في المجزوم، ومن ذلك قراءة قوله تعالى: (لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10)) [53]، يقول سيبويه: "فلما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزما ولافاء فيه، تكلّموا بالثاني؛ لأنّهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهموا هذا"[54].

ثالثا: ماجاء في المرفوعات، ومن ذلك ما جاء به سيبويه: "واعلم أن ناسا من العرب يغلطون، فيقولون: (إنّهم أجمعون ذاهبون، وإنّك وزيد ذاهبان"[55] ، والمقصود بالغلط هنا هو التوهم كما سبق وأن أشرنا ذلك، وهذا واضح من كلامه.

رابعا: ماجاء في المنصوب اسما، نحو قوله تعالى: (وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71)) [56]، فمن فتح الباء كأنّه قال: (ووهبنا له إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، وقيل أيضا: (وهبنا)، أي: ومن وراء إسحاق وهبنا يعقوب، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا ﴾ [57]؛ لأنّ البشارة من الله عز وجل بالشيء في معنى الهبة، وقيل: هو مجرور عطفا على (بإسحاق)، أومنصوب عطفا على محله[58].

ومن شواهد التوهم أيضا قول الشاعر[59]:

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثلهُ *** عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

نصب (تأتي) على إضمار أن، والمعنى لايكد منك أن تنهى وتأتي[60].

وفي النهاية لا يسعنا المجال للتوسع في هذه الظاهرة، فالتوهم قضية واسعة، وبها تصريحات واضحة منذ القدم، والذي لاحظناه أن المعنى هو أساس عملية التوهم، فعليه ترتكز وإليه تنتهي، والهدف من التوهم هو إجلاء المعنى وكشف اللبس الحاصل لأي تركيب، وبالتالي فالعلاقة بين المعنى واللفظ علاقة وطيدة، فإن عجزت الألفاظ توهمنا المعنى، والعكس صحيح، فإن عجز المعنى ارتكزنا على الألفاظ لتوضيح المعاني.

المبحث الرابع: ظاهرة التقارض النحوي

التقارض ظاهرة لغوية علا صداها في الدراسات النحوية، ويؤدي فيها المعنى دورا بارزا، في مظهر من مظاهر اتساع اللغة ومرونتها، فإذا كان التضمين، والحمل على المعنى، والتوهم، والاشتقاق والاشتراك، والترادف وغير ذلك من الظواهر اللغوية التي تمثل أنواع الإحاطة والتنوع في الأسلوب اللغوي، فإنّ التقارض واحدا من هؤلاء.

وقد عبّر النحاة بألفاظ أخرى ترادف مصطلح التقارض كالتناوب، والتعاقب[61].

التقارض لغة

التقارض من الفعل الثلاثي (قرض)، ومصدره (القْرضُ)، وله معانٍ كثيرة، أشهرها: الإعطاء والأخذ والتبادل، قال الجوهر: القرض ماتعطيه من المال لتُقْضَاهُ، واستقرضت من فلان أي: طلبت منه القرض فأقرضني، واقترضت منه أي: أخذت منه القرض، وهما يتقارضان الإحسان والإساءة[62].

وقال الفيروز أبادي: "القرْض ويكسر: ماسلّفت من إساءة وإحسان ... وما تعطيه لتقضاه، وأقرضه: أعطاه قرضا، واقترض منه: أخذ القرض، وهما يتقارضان الخير والشر أي: يتبادلان"[63].

وفي لسان العرب: "وهم يتقارضون الثناء بينهم، ويقال للرجلين: هما يتقارضان الثناء في الخير والشر أي: يتجازيان"[64].

و"تقارضا الشيء أو الأمر: تبادلاه"[65].

ومن ذلك فإنّ المعنى اللغوي للتقارض يدور حول معنى الإعطاء والأخذ والتبادل بين الشيئين، وهذه المعاني لاتبعد عن المعنى الاصطلاحي له.

التقارض في اصطلاح النحاة

نعني بالتقارض هنا في مجاله النحوي، فعلى الرغم من البعد الزمني للدرس النحوي، إلا أننا لم نجد له تعريفا إلّا في زمن متأخر بعض الشيء، وأوّل من وضع له تعريفا هو الزمخشري، وذلك في قوله: "واعلم أنّ (إلّا) و(غير) يتقارضان ما لكل واحد منهم"[66].

ثمّ شرح ابن يعيش هذا التعريف بقوله:"التقارض هو أن كل واحد منهما من الشيئين يستعير من الآخر حكما هو أخص به ...فأصل (غير) أن يكون وصفا، والاستثناء فيه عارض مُعارٌ من (إلا)"[67].

ووضع ابن هشام القاعدة الحادية عشر بعنوان: "من مّلح كلامهم تقارض اللفظين في الأحكام"[68].

ويقصد بالتقارض أيضا، أو مايسمى بالنيابة: "حمل معنى الحرف على الأداة الأصلية فيه[69].

وعليه فيمكن القول: إن معنى التقارض هو إعطاء حكم مختص بلفظ ما إلى لفظ آخر، فيعامل معاملتها، ويصبح فرع في هذا المعنى، كما يُعطى اللفظ الآخر أو الكلمة الأخرى حكمها الخاص إلى الكلمة الأولى لتعامل معاملتها، وبالتالي يجري اللفظين مجرى بعضهما في الإعمال والإهمال.

مواضع التقارض

تتركز النيابة أو التقارض في الحروف والألفاظ الحاصل بينهما تماثل وظيفي، وقد أشار محمود الصغير إلى ذلك فيما نقله عن الطبرسي فقال: "لأنّ حروف الإضافة متواخية لما يجمعها من معنى الإضافة"[70].

فالحروف تضيف للفعل معناه وتحدد مدلوله من خلال نظام التعدية، وقد تخرج على هذا النظام لتتلاقى عند معنى الظرفية وما يدور في فلكها، وكذلك هو الحال بالنسبة لحروف العطف، فهي تدور في نطاق الاشتراك وما يتصل به من دلالات يساعد السياق في صياغتها وتكوينها، وقد تكون في أساليب أخرى كالظرفية الصريحة في (إذ) و(إذا)، إذ أجيز التقارض بينهما؛ لتشابهما، فكل ما يدور في إطار أسلوبي واحد قد أُجيز فيه التقارض[71].

ومما سبق يمكن عرض موجز لأنواع التقارض مع ذكر بعض الأمثلة لها.

أنواع التقارض

أ- التقارض بين اللفظين في المعاني.

وهو التقارض الواقع بين حروف الجر، كأن يأخذ حرف معنى يختص به حرف آخر، ومن ذلك:

أ. التقارض بين (في) و(على)، فمن المشهور أن (في) تفيد معنى الظرفية إلا أنها قد تتجاوز ذلك مقترضة معنى (على) التي هو للاستعلاء، ومن ذلك نحو قوله تعالى: ﴿ لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[72]، أي: على جذوع النخلة، فاقترضت (في) معنى (على)[73].

ب . التقارض بين (إلى) و(في).

قد تخرج (إلى) عن معناها الأصلي الذي هو انتهاء الغاية إلى معنى (في) على سبيل المقارضة، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ [74]، أي: ثم يجمعكم في يوم القيامة[75].

ج . التقارض بين (الباء) و(في).

قد تقترض الباء من (في) معنى الظرفية، ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (137 وَبِاللَّيْلِ) [76]، أي: وفي الليل[77].

د . التقارض بين (الباء) و(عن).

قد تأتي الباء بمعنى المجاورة، مقترضة هذا المعنى من (عن)، ومثال ذلك قوله تعالى: (يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم) [78]، أي: بين أيديهم وعن أيمانهم[79].

2 . التقارض بين اللفظين في الأحكام الإعرابية.

وهو أن تأخذ أداة ما حكم غيرها في الإعراب اقتراضا، نحو مجيء (إلا) بمعنى (غير) في الاستثناء، كما في قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [80]، فلولا التقارض بين (إلا) و(غير) ؛ لفسد المعنى وبطل، فلو كانت (إلا) بمعناها لكان المعنى: لو كان فيهما آلهة ليس الله من ضمنها لفسدتا، وهذا المعنى باطل بلا شك، إذ يوحي بأن الفساد حاصل بوجود الله ضمن الآلهة، ولم يخرج ولم يطرح، وهذا واضح بطلانه، بخلاف ما لو كانت (إلا) اسما بمعنى (غير) نعتا للنكرة قبلها فالمعنى هنا صحيح ومستقيم[81].

3 . التقارض بين اللفظين في الشكل، والهيئة.

وهو أن تقترض لفظة ما هيئة غيرها؛ لتشابههما واتفاقهما في بعض الأمر، كالتقارض بين الحال والتمييز، فالأصل في الحال أن ترد مشتقة من المصدر؛ لتدل على متصف، نحو قولنا: جاء عمرو مسروا، إلا أنها قد تأتي جامدة، مقترضة هذا الجمود من التمييز لما يحملانه من تشابه بينهما، نحو قولك: بعه مدا بدرهم، فمدا حال جامدة، أي: بعه مسعرا كل مد منه بدرهم، وقد يتبادلان الهيئة والشكل فيأتي التمييز مشتقا، مقترضا هذا المعنى من الحال للمشابهة، نحو:لله دره فارسا، وحسبك به كافلا، وكفى به عالما[82].

وقد بيّن الأشموني ماسبق فقال: "إن حق الحال الاشتقاق، وحق التمييز الجمود، وقد يتعاكسان، فتأتي الحال جامدة، كهذا مالك ذاهبا، ويأتي التمييز مشتقا، نحو: لله دره فارسا"[83].

والشواهد على التقارض كثيرة جدا لا يمكن احصاؤها في عدد من الأسطر، فما توصلنا إليه أنّهم يتقارضون المعاني بتبادل الألفاظ والأدوات، وبالتالي فالمعنى هو الهدف والغاية من هذه الظواهر اللغوية.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث نذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها كما يلي:

1- إن ظاهرة الحمل عل المعن، والتضمين، والتوهم، والتقارض لم توضع اعتباطا، وإنما لكل منها فائدة وميزة تميزها عن غيرها، فجلّها وضعت لسلامة التراكيب اللغوية.

2- ظاهرة الحمل عل المعنى من أكثر الظواهر شمولا واتساعا التي لجأ إليها النحاة في منهجهم.

3- اتساع ظاهرة التضمين؛ لتشمل جميع أقسام الكلم (الاسم، والفعل، والحرف).

4- لظاهرة التوهم دور كبير في معالجة النصوص التي خالفت القواعد النحوية، وهو مصطلح متّصل بالعقل والفكر دون أن يكون له وجود في الواقع الملموس.

الهوامش:

1ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: علي نجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح إسماعيل حشلبي، 1994م ، د.ط، القاهرة: مطابع الإهرام بكرنيش النيل: 1/ 145.

2 . لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين، 2010م، المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد: 185/13.

3 . المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف: شعبان عبد العاطي عطية، أحمد محمد حسين، جمال مراد حلمي،2004، ط4، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية:987.

4. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، 1979م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 195.

5 . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، 1994م ، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، ط1، دمشق: دار الفكر: 75/2

6. الحمل على المعنى في العربية، علي عبدالله حسين العنبكي، ط1، بغداد، ديوان الوقف السني، 2012: 29

7 . ظاهرة الحمل على المعنى في الدراسات النحوية، أشرف مبروك، 1989، رسالة ماجستير، القاهرة: دار العلوم، ص:6

8 . انظر النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، محمد حماسه عبد اللطيف، 2000م، ط1، عمان: دار الشروق، ص: 153.

9 . الحمل على المعنى في العربية، العنبكي : 32

10 . انظر المصدر السابق، ص: 32 . 55.

11 . الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق: محمد علي النجار، 1952،بيروت: المكتبة العلمية:435/2.

12. النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي)، محمد حماسة، ص:153.

13. سورة الأنعام، الآية: 78.

14. انظر النحو والدلالة، محمد حماسة، ص: 155.

15. الخصائص، ابن جني: 516/2.

16. سورة النساء، الآية 171.

17ـ الكتاب، أبو بشر عمرو سيبويه، 1988، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي: 283/1 . 284.

18. نسبه ابن جني في خصائصه: 433/2 إلى سوّار بن مضرب.

19. الخصائص، ابن جني: 433/2.

20ـ متشابه القرآن العظيم، أحمد بن جعفر ابن المنادي، 1408هـ، ، تحقيق: عبد الله الغنيمان، ط1، نشر الجامعة الإسلامية، ص:57.

21. لسان العرب، ابن منظور، مادة: ضمن: 127/17.

22ـ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار،1998م، ط1، إسطنبول: دار الدعوة للطباعة والنشر: 545/1، (مادة: ضمن).

23ـ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، 1986م، بيروت: ساحة الرياض الصلاح: 161، مادة: ضمّن.

24. انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، وحمد علي عمدالله، 1964، ط1، دار الفكر . دمشق:762/2.

25. سورة الأعراف، الآية: 105.

26 . الرسالة، محمد بن أدريس الشافعي، 1938م، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، مصر: مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده: 127.

27. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور ، 1984م، تونس: الدار التونسية للنشر: 123/1.

28 . النحو الوافي، عباس فضل حسن، د.ت، ط3، مصر: دار المعارف: 564/2.

29 . انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: 762/2.

30 . سورة الكهف، الآية:28.

31 . سورة النساء، الآية: 2

32 ـ انظر الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، د.ت، تحقيق: مركز الدراسات الإسلامية، د.م: د.ن:2/ 106.

33 ـ انظر التأويل النحوي عند الفخر الرازي في مفاتيح الغيب، أكرم نعيم عطوان الحميداوي، 2008، تحقيق: فاخر جبر مطر، جامعة الكوفة، العراق: 167.

34 انظر الرسالة للشافعي: 127.

35 . سورة الأنعام، الآية: 3.

36 المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم)، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني،، د.ت، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية: 564/2.

37 . سورة الأعراف، الآية: 105.

38 .. انظر الجامع لأحكام القرآن الكريم والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، أبو عبدالله محمود بن أحمد القرطبي، 2006، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة: 292/9.

39 . سورة البقرة، الآية: 187.

40 . انظر الخصائص، ابن جني: 2/ 435.

41 . سورة البقرة، الآية: 166.

42 . سورة الفرقان، الية: 59.

43 . انظر تفسير الفخر الرازي" التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي، 1981م، ط1، دمشق: دار الفكر: 234.

44 . التضمين بين حروف الجر في صحيح البخاري (دراسة نحوية دلالية)، إيناس شعبان محمد درباس، د.ت، رسالة ماجستير، غزة: الجامعة الإسلامية: 96.

45 . الكتاب، سيبويه: 155/2.

46 ـ ظاهرة الحمل على التوهم في النحو، قاسم محمد صالح،د.ت، جامعة جرش، قسم اللغة العربية، ملتقى أحبة القرآن www.a-quran.com>showthread : 2.

47 . لسان العرب، ابن منور: 16/ 130.

48 ـ التوهم عند النحاة، عبدالله أحمد جاد الكريم، 2001م، ط1، القاهرة: مكتبة الآداب: 30.

49 ـ الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، 1998م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة: 314.

50 ـ معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير نجيب اللبدي، 1985، ط1، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان،: 246.

51 . انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام: 531/1 . 533.

52 . انظر المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسهما.

53 . سورة المنافقون، الية: 10.

54 . الكتاب، سيبويه: 2/ 100 . 101.

55 . المصدر السابق: 2/ 155.

56 . سورة هود، الآية: 71.

57 . سورة هود، الآآية: 71.

58 انظر المغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام: 1/ 532.

59 ـ نسبه سيبويه للأخطل، والمشهور أنه لأبو الأسود الدؤلي، انظر ديوانه، ص: 404، وهامش الكتاب لسيبويه: 3/ 41.

60 . انظر الكتاب، سيبويه: 3/ 42.

61 . انظرالأدوات النحوية في كتب التفسير، محمود أحمد الصغير، 2001م ط1، دمشق: دار الفكر: 700.

62 . انظر تاج اللغة وصحاح العربية، ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، 1956م، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار، ط1، بيروت: دار العلم للملايين: 1/ 221، (مادة: ق.ر.ض).

63 . القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، 2005، ط8، تحقيق: مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان:602، (مادة: قرض).

64 . لسان العرب، ابن منظور: 9/ 83، (مادة: قرض).

65 . المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية:727.

66 . شرح المفصل، أبو البقاء بن على الموصلى ابن يعيش، 2001م، ط1، تحقيق: إيميل بديع يعقوب، لبنان بيروت، دار الكتب العالمية: 70/2.

67 . المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسهما.

68 . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام: 2/ 778.

69 . الأدوات النحوية في كتب التفسير، محمود أحمد الصغير، 2001م، ط1، دمشق: دار الفكر:708.

70 . مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، 2006م، ط1، بيروت: دار المرتضى: 707.

71 ـ انظر المصدر السابق، الصفحة نفسها.

72 . سورة طه، الآية: 71.

73 . انظر الخصائص، ابن جني: 307/2.

74 . سورة الجاثية، الآية:26.

75 . انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام: 1/ 79.

76 . سورة الصافات، الآية: 137، 138.

77 ـ انظر ظاهرة التقارض النحوي في القرآن الكريم، سوزان عبدالواحد عبدالجبار، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العدد الثالث، المجلد الأول، 2009: 366، 367.

78 . سورة الحديد، الآية: 12.

79 ـ انظر فتح الرحمن في تفسير القرآن ، مجير الدين بن محمد العليمي الحنبلي ، 2009م، ، ط1، سوريا: طبعة مجمع اللغة العربية: 6/ 204.

80 . سورة الأنبياء، الآية: 22.

81 . انظر الكتاب، سيبويه: 2/ 331.

82 ـ انظر شرح ابن عقيل: 291/2،وروظاهرة التقارض النحوي في القرآن الكريم، سوزان عبدالجبار: 963.

83 . شرح الأشموني على ألفية بن مالك (منهج السالك إلى ألفية بن مالك)، أبوالحسن نور الدين الأشموني، 1955م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، بيروت– لبنان: دار الكتاب العربي:267/1.